حركة الاستيطان الرّوماني في بلاد المغرب
خلال العصر الإمبراطوري الأوّل (27 ق.م- 235م)

عبيدر سهام/ طالبة دكتوراه
معهد الآثار- جامعة الجزائر2
Sihem06abider@gmail.com

الملخص:

بدأت عملية الاستيطان الروماني على أنقاض مدينة قرطاجة، بمشروع كايوس قراكوس، الرامي إلى إنشاء "مستوطنة يونونيا قرطاجو"، لكن الاستيطان يأخذ طابعا رسميا مع يوليوس قيصر، ويتوسع بشكل ملفت مع أكتافيوس أغسطس، الذي استغل فترة خلو العرش الموريطاني (33-25 ق.م) في إنشاء ثلاث عشرة مستوطنة، اعتبرت كمراكز أمامية حقيقية، تحضر سكان المنطقة لقبول توطين المزيد من المستوطنين.

وقد لجأ خلفاء أغسطس (من الأسرة اليوليو- كلاودية) إلى سياسة تهدف إلى تثبيت مكتسبات سياسة الاستيطان تلك، قبل أن تبلغ الحركة أوجها مع السواريين (193-256م)، وهي الحركة الاستيطانية، التي نحاول ترصدها في هذه المداخلة.

الكلمات المفتاحية: الاستيطان؛ روما؛ بلاد المغرب؛ العصر الإمبراطوري الأول؛ مشروع كايوس قراكوس.

Abstract:

The Roman settlement process began on the ruins of the city of Carthage, with the project of Caius Gracchus, aiming to establish the "Jononia settlement of Carthage", but the settlement takes on an official character with Julius Caesar, and expands remarkably with Octavius Augustus, who took advantage of the period of the Mauritanian vacancy (33-25 BC). m) in the establishment of thirteen settlements, which were considered as real outposts, preparing the inhabitants of the area to accept the settlement of more settlers.

The successors of Augustus (from the Julio-Claudia family) resorted to a policy aimed at consolidating the gains of this settlement policy, before the movement reached its climax with the Sawaris (193-256 AD), which is the settlement movement, which we try to monitor in this intervention.

Keywords: settlement, Rome, the Maghreb, the first imperial era, the Caius Gracchus project.

1- ماهية الاستيطان:

الاستيطان والتعمير: هي عملية شبيهة بالاستعمار الاستيطاني الحديث، أمّا التعمير، فهو عملية تأتي لتثبيت الاستيطان، وتوفر شروط الحياة الملائمة، وتجعل الاستيطان رائقا ملائما، أي إقامة المدن والمستوطنات، مدّ شبكة الطرق، استصلاح الأرض، التحكم في المياه وإقامة شبكة التوزيع ومنشآت الري، التحكم في الثروة الزراعية، فإقامة كل المستلزمات، تجعل الحياة مستساغة وجذابة، باختصار عملية التعمير، تستهدف نقل أشكال العمران ووسائل الحياة المادية والمعنوية من الوطن الأم إلى الوطن الجديد، حتى لا يشعر هؤلاء "المستوطنين" بالغربة والانقطاع عن الحياة التي تعودوا عليها في الوطن الأم، بل الحصول على فرص أحسن للحياة في الوطن الجديد[1].

والاستيطان هو بالتالي عملية تحويل وتغيير الوجه الحضاري للبلد المستوطن، كان ذلك إراديا أو غير إرادي، يحدث تلقائيا، وهو أيضا عملية دمج بشري حضاري[2].

2- منطلقات وأسباب الاستيطان:

2-1- الدوافع الاقتصادية:

حاجة المجتمع الروماني إلى أراض جديدة، لكون إيطاليا ومنطقة اللاتيوم وروما خاصة لم تعد قادرة على استيعاب تزايد السكان، فنموها لم يعد كافيا، أي أنّ القدرة الاستهلاكية فاقت القدرة الإنتاجية، لذلك كان على روما الاستيلاء على الأراضي التي توفر لها الغلال الكافية لسكانها المتزايدين، ولأنّ المواطن الروماني يقضي معظم أوقاته في الحروب، ولم يعد لديه الوقت الكافي للإنتاج الفلاحي وخدمة الأرض، وأصبح بذلك لا يستطيع توفير حاجاته الغذائية.

شهدت روما أزمة اقتصادية حادة، نتيجة عوامل مختلفة منها إنهاك القوى المنتجة بسبب الحروب وتراجع الزراعة في شبه الجزيرة الإيطالية، بحيث تعتبر هذه الأخيرة العمود الفقري للاقتصاد الروماني، كما نجد أيضا مشكلة فقر الريف وإقفاره من الفلاحين، حيث نزح الكثير من الفلاحين الذين فقدوا أراضيهم في أرياف إيطاليا إلى روما وكذا الجنود المسرحون، مما يتطلب توفير المواد الغذائية الأساسية (القمح بالخصوص) بأسعار متدنية أو

1- حارش (محمد الهادي)، تاريخ الجزائر وبلدان المغرب في العصور القديمة، (مخطوط، ص. 250).

2- نفسه.

حتى مجانية، أدّى إلى زيادة الاستهلاك في الوقت الذي تناقص فيه الإنتاج في إيطاليا بسبب تحول نشاط المزارعين الكبار نحو تربية المواشي أو زراعة الزيتون والكروم، التي تتلاءم والمساحات الكبرى، أمام عجزهم عن منافسة القمح المستورد من صقلية وسردينيا. كل هذا جعل روما تعجز على تلبية حاجيات المجتمع الإيطالي بصفة عامة وسكان روما بصفة خاصة[1]، لذلك كان على روما الاستيلاء على الأراضي التي توفر لها الغلال الكافية لسكانها المتزايدين.

ولا يجب إغفال فساد مناخ العمل ومناخ رجال الأعمال، الذي سادته الكثير من الفضائح كالاحتكار، والسلب والتحويل، التي لا يمكن لروما أن لا تتأثر بها، بحيث نجد أرنولد توينبي (A.) Toynbee يقول: «حلقة جديدة ظهرت نتيجة الحروب وتكرّست في المحيط المالي الروماني، وأدّت برجال الأعمال إلى الفساد وإلى إغماض عيونهم عن أفعالهم غير الشريفة» [2]

من بين أهم الإصلاحات التي ظهرت في هذه الفترة من العهد الجمهوري، نجد تلك التي شرع فيها الأخوين كراكوس [3](Gracchus)، حيث سعى تيبريوس سمبرونيوس كراكوس (162– 166 ق.م.) بعدما أدرك سوء الأحوال الاقتصادية في إيطاليا، وأنّ تدهور الريف الإيطالي أمر وشيك الحدوث، إلى اتخاذ تدابير تكفل وضعا اقل عسرا على فئات الشعب المتضرّرة، فكانت أولى المشاكل التي تطلبت علاجا سريعا هي مشكلة فقر الريف من الفلاحين الأحرار وتدهور الزراعة، فتوجب العمل للحد من اتساع الملكيات الزراعية الخاصة بكبار الملاك،[4] التي ولّدت تضخما غير مبرّر للعبيد في الضيع، الذين يقومون بحرث الأرض من دون إحقاق النتائج المنتظرة، وبالمقابل العمل على إنعاش الملكيات الصغيرة والمتوسطة، فاقترح تيبريوس سمبرونيوس كراكوس مجموعة من الحلول في إطار مشروع تقدم به إلى مجلس الشيوخ ليتمكن من استصدار قانون يتعلق بالملكيات الصغيرة، الهادف إلى توزيع الأرض على الفلاحين الفقراء الرومان والإيطاليين لتغيير وتحسين صورة الريف

1– بشاري (م.ح)، دور المقاطعات الإفريقية في اقتصاد روما بين 285ق.م. و146ق.م.، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه في التاريخ القديم، جامعة الجزائر 02، السنة الجامعية 2007/2006م، ص113.

2 - Toynbee (A.), Hannibal's Legacy, War's effects on Romain lifs, é vol, Oxford, 1965, p. 69.

3 - Gascou (J.), la politique municipale de l'empire romaine en Afrique proconsulaire de Trajan à Septime-Sévère, Rome (1972), p.16.

4 - Peganiol (A.), Histoire de Rome, Paris (1949), p.141.

الإيطالي. وينُصُّ هذا القانون على ألّا يمتلك أحد أكثر من 500 يوجيرة من الأراضي العامة، يُضاف إليها نصفها إذا كان لديه ولد واحد، ومثلها إذا كان لديه أكثر من ولد، وما يزيد عن ذلك يسترد ليوزع في شكل قطع أرضية على المعدومين من الرومان والإيطاليين مقابل إيجار رمزي، على أن تحتفظ الدولة بملكيتها وتحرّم بيعها.

على الرغم من هذه الجهود، فقد انتهى الأمر إلى وضع سيء كان متوقعا، وفشل هذه الإصلاحات التي قدمها تيبريوس سمبرونيوس كراكوس، نتيجة تفتت النبلاء المسيطرين على الأرض من ناحية، حتى لا تمس مصالحهم ومن ناحية أخرى قيام ثورة، وسادت الفوضى كنتيجة حتمية لمشكل العبيد والعاطلين، ولم يتم القضاء عليها إلّا بعد مرور ستين عاما، وكان ذلك في عهد يوليوس قيصر.

وللتخفيف من حدّة هذه الأزمة تم التفكير في تأسيس المستوطنات خارج إيطاليا، وهو المشروع الذي فكر فيه كايوس كراكوس، والعمل على خلق قوانين زراعية تخفف على الفلاحين، إلّا أنّها قوبلت بالرفض من طرف الطبقة الأرستقراطية فباءت كلّها بالفشل.

2-2- الدوافع الاجتماعية:

تفكير روما في توسيع نطاقها الحيوي بالاحتلال والتوسع وتأسيس المستعمرات، كان نتيجة حتمية أوجدتها الكثافة السكانية، وكذلك الصراع في مجلس الشيوخ الروماني بين طبقة الأرستقراطية (Optimates) وطبقة العوام (Populares)، وانحطاط المزارع الصغيرة في إيطاليا أدى بمالكيها لتركها والهجرة إلى المدن بحثا عن العمل والقوت، وبحثا عن ظروف حياة أفضل ما أدى إلى اكتظاظ العاصمة بالسكان، وما عقّد الأمر هو كثرة الجنود المسرحين وإحداثهم فوضى واضطرابات بين الحين والآخر.

ومن العوامل التي عمقت الحالة المأساوية للرومان في العهد الجمهوري، نجد التدفق الكبير للعبيد، نتيجة الحركة التوسعية الكبرى لروما، واستعباد من يقعون في الأسر، فحلّ هؤلاء محل الزُّراع الأحرار، وبذلك أصبحت روما تعج بالعبيد من مختلف الشعوب والأجناس المقهورة (ضحايا الحروب والقرصنة التي امتهنها الكثير من الرومان آنذاك)[1]، ما أدّى إلى اكتظاظ روما بالعاطلين عن العمل وانتشار البطالة، وتفشي الفقر وتأزم الأوضاع لدى العبيد والعامة، فجعل هذا الوضع، السلطة الرومانية تسعى إلى التخلص من العناصر العاطلة عن

1- ديورانت (ويل)، قصة الحضارة، المجلد الثالث، ترجمة محمد بدران، الطبعة الثانية، القاهرة، 1964، ص. 122.

العمل، وتوطينهم في المقاطعات تجنبا لإحداث الشغب، التي كانت تتسبب فيها من حين لآخر، وإبعاد النازحين الإيطاليين الذين أفلسوا من جراء الأزمة الاقتصادية.

3-3- الدوافع السياسية:

يقصد هنا فساد الحياة السياسية، والصراع الذي عاشته روما بين الأرستقراطيين من جهة والطبقة العامة من جهة أخرى، حيث أدّى ذلك إلى اشتداد المنافسة في الانتخابات، ففسدت الحياة السياسية وتدهورت الأخلاق، وانتشر بطش أصحاب السلطة والنفوذ لتحقيق أهدافهم بشتى الوسائل، كما تفشت ظاهرة الرشوة وشراء أصوات المواطنين، كما أنّ العاطلين عن العمل الذين كانوا مصدرا للشغب والاضطرابات تم استثمارهم كسلاح ووقود فعال في الانتخابات التمثيلية وفي التشاحن الحزبي[1]، ذلك لسعي المسؤولين إلى كسب تأييد المواطنين الرومان في الانتخابات لنيل المناصب العليا والمحافظة عليها شريطة توفير احتياجاتهم. وكانت بلاد المغرب من بين المناطق التي ساهمت في ذلك بتوفير جزء كبير من القمح في البداية والزيت والمواد الأساسية فيما بعد، وقد نتج عن هذا الوضع غير المحتمل تواصل تذمر الشعب وثوران العبيد، الذين كانوا يطالبون بحقوقهم من السادة الرومان، ما عزّز فكرة التخلص من هؤلاء العاطلين والمشاغبين، لدى القادة بإبعادهم إلى خارج إيطاليا وروما، بغية إيجاد حل للمشاكل التي أصبحوا يتخبطون فيها.

كل هذه الظروف ولّدت في نفوس بعض القادة المصلحين والتجار إحساسا بأنّ الحل الوحيد، الذي يضمن إصلاح الحياة السياسية ويكفل الاستمرار لروما، هو لفت نظر الجميع نحو بلدان ما وراء البحر، وبذلك ينشرون قيم الحضارة الرومانية وعولمتها في الولايات[2]، خاصة بعد تدمير الحضارة القرطاجية المنافسة في الحوض الغربي الجنوبي للمتوسط. أما المؤرخ جون ماري لاسير، فيُرجع أسباب توسع الرومان إلى بلاد المغرب إلى عاملين، هما:

3-3-1- العامل الجغرافي: الذي لعب دورا كبيرا بحكم أنّ الموقع الجغرافي لإفريقيا يبدو بالنسبة لروما أكثر تجانسا من أية بقعة أخرى من بقاع العالم القديم، بحيث يظهر كما

1- العبادي (مصطفى)، الإمبراطورية الرومانية، بيروت 1999، ص.ص 38- 39، الصفدي (هشام)، تاريخ الرومان، الجزء الأول، بيروت 1967، ص.198.

2- عبد اللطيف (أ.ع.)، التاريخ الروماني، عصر الثورة (من تيبريوس كراكوس إلى أوكتافيوس أغسطس)، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت 1973، ص.304.

لو كان امتدادا طبيعيا لها. هذا يعني أنّ تأقلم الوافدين إليه لن يدوم طويلا، بل سيكون بشكل مباشر، بما أنّ المنطقة لا تختلف عن جنوب إيطاليا من الناحيتين الإيكولوجية والجيولوجية، إضافة إلى ذلك المناخ اللطيف والملائم المشجع على الاستقرار، فمناظر حقول أشجار الزيتون وحدائقها كما يذكر لاسير لم تكن تختلف إلّا قليلا عن تلك المتواجدة في إيطاليا[1].

كما أنّ بعض المؤرخين قد ذهبوا إلى أنّ جغرافيا بلاد المغرب عملت على حماية القادة الرومان في الفترات العصيبة من خلافاتهم الداخلية، فكان المعارضون السياسيون يلجأون إلى نوميديا دون غيرها من البلدان لحسم الأمر، لجأ إليها ماريوس وأنصاره خلال الحرب الأهلية الأولى، ثم بومبي وأنصاره خلال الحرب الأهلية الثانية، فهذه البلاد لها الكثير من المحاسن، منها طبيعتها الجغرافية الجبلية (نوميديا بالخصوص)، التي كانت تساعدهم على خوض حرب العصابات، بالإضافة إلى وجود أنصار ماريوس من قدماء المحاربين الرومان في الجزء الشرقي لبلاد المغرب، في المدن المجاورة لقرطاجة وفي السواحل النوميدية.

3-3-2- العامل النفسي: أما السبب الثاني الذي حدده لاسير، فيتمثل في العامل النفسي، حيث أن العديد من الأسباب أدّت إلى ظهور الحركة الاستيطانية والهجرة، والتي حصرها لاسير في البحث عن أسباب عيش أحسن وأكثر وفرة، والهروب من انحطاط المجتمعات الريفية في شمال إيطاليا وإقليم إتروريا بالخصوص، وهناك من اتخذ من هذه الهجرة مغامرة، وآخرون وجدوا في إفريقيا ما كانوا يأملون إيجاده في بلدهم، وهناك من استقر في إفريقيا بشكل رسمي، بقرار من الدولة ونقصد هنا قدماء المحاربين، الذين بعدما شكلوا تهديدا لروما، أصبحوا أداة لتحقيق الأهداف الاستيطانية[2].

3- مراحل الاستيطان الروماني في بلاد المغرب:

اتبعت روما إستراتيجية هادفة لتكريس الحضور الفعلي للعنصر الروماني في موريطانيا القيصرية، بدء من الإمبراطور أوكتافيوس أغسطس إلى غاية أواخر الحكم السيفيري 235م.

1- Lassère (J.M.), Ubique Populus, Peuplement et mouvement de population de la chute de Carthage à la fin de la dynastie des sévères (146av C-235ap.C.), Paris, CNRS, 1977, p.75.
2- Lassère (J.M.), Op. Cit, p.77.

3-1- عهد الأسرة اليوليو كلاودية 30 ق.م- 68م:

سياسة الاستيطان في عهدي قيصر وأغسطس:

قام قيصر أولا بإحياء مشروع كايوس قراكوس الرامي إلى إنشاء "مستوطنة يونونيا قرطاجو"، التي تم افتتاحها بعد وفاته سنة 44 ق.م.، وكان بعد انتصاره في تابسوس قد سلّم إلى المرتزق سيتيوس قيرطا وما جاورها، وتحولت إلى مستوطنة، كما أسس أيضا خمس مستوطنات في الموانئ المحيطة بقرطاجة في قوربة (Curubis/ Corba) على الساحل الشرقي للرأس الطيب وقليبية (Clubea/ Kelibia) ونابل (Nepolis/ Nabeul) ومرسية (Carpis/ Mraissa)، حيث تم توزيع بعض المستوطنين من قدامى المحاربين والمدنيين، ودون شك أيضا في بنزرت (هيبو- دياريتوس)، لكن لم ترق إلى نظام المستوطنات إلّا في عهد أوكتافيوس أغسطس، يمكن القول أنّه لم يكن لقيصر متسعا من الوقت لتحقيق مشروعه بالشكل المرغوب، ليس من منطق أنّ أحلام العظماء لا تنتهي، بل من زاوية أن المكائد أيضا لا تنتهي ضدهم، فالمشروع الاستيطاني قد توقف نسبيا بمقتل قيصر في 15 مارس 44 ق.م.، واستمر الوضع كذلك طيلة الفترة الفاصلة بين زوال حكمه، وتولي أوكتافيوس أغسطس الحكم عام 29 ق.م.

كانت مشاريع أغسطس ترتكز على إنشاء المستعمرات، وهي نتيجة حتمية بعد الحروب الأهلية، بحيث أنّه لم يعد بحاجة إلى كل الفرق التي كانت تحت إمرته من الجنود والفرسان والفرق المساعدة التي تشكل عبئا على الخزينة وخطرا على الإمبراطورية[1]، فأراد أن يتخلص منها بإرسالها إلى خارج إيطاليا.

أسّس أغسطس تسع مستعمرات في الجزء الشرقي لموريطانيا لتوطين الجنود المسرحين الذين استفادوا من عملية توزيع الأراضي[2]، واختير لهذه المستعمرات مواقع اقتصادية وإستراتيجية، ست (06) منها على الساحل وثلاثة (03) في الداخل، تتمثل المستوطنات الساحلية في: مستعمرة صلداي (بجاية)[3] Saldae، والتي كان لها ميناء ذو أهمية كبيرة في مدخل الصومام، روزازوس (أزفون)[4] Rusazus، اجليجلي (جيجل)[5] Igiligli، وقد تم

1- Pflaum (H.G.), La romanisation de l'Afrique, scripta varia, éd.afr. Rom, Paris 1978, p.378.
2 - Salama (p.), Les voies romaines de l'Afrique de nord, Alger 1951, p.36.
3 - Pline l'Ancien, V. 5.C I L VIII 8933," Colonia Iulia Augusta salditana".
4 - AE, 1921, 16" Colonia Iulia Augusta Rusazus".
5 - Pline l'Ancien, V. I, 20-21 " Igiligli colonia Augusti ".

اختيار هذا الموقع لتوفره على ميناء يسمح بتصدير زيت المناطق المحيطة بها نحو روما[1]، ومستوطنة تامنفوست[2] Rusguniae وقبة سيدي ابراهيم[3] Gunugu، وكارتناي (التنس)[4] Cartennae، هذا في موريطانيا الشرقية، مع إضافة أربع (04) مستوطنات أخرى في موريطانيا الغربية على سواحل المحيط بين مضيق جبل طارق ووليلي وهي: بابا (Baba) وباناسا (سيدي علي بوجنون) وزليل (أزيلا- أصيلا) وطنجة (Tingi).

أمّا المستوطنات الداخلية فهي تشمل كل من: مستعمرة زوكابار (مليانة)[5] Zucchabar التي حملت اسم يوليا أو غستا بين سنتي 27 و25 ق.م.[6]، وحمام ريغة (أكوا كاليداي) Aqua Calidae[7]، التي اشتهرت بمياهها المعدنية، وهي تقع في الجنوب الشرقي لشرشال[8]، وتوبوسكتو (تيكلات)[9] Tubusuctu في الجنوب الغربي من بجاية في واد الصومام، في موقع يسمح بمراقبة القبائل الكبرى والصغرى في آن واحد[10].

كان الدافع من وراء تأسيس هذه المستوطنات هو حاجة الإمبراطور أوكتافيوس لضمان أكبر قدر من الأراضي لتوزيعها على جنوده المسرحين، الذين انتهت مهامهم في الجيش، وتعذر رجوعهم إلى وطنهم، إذ توجب عليه إيجاد أماكن يستقرون فيها.

3-2- عهد الأسرة الأنطونية 96/ 193م:

وجد الأنطونيين الحركة الاستيطانية قد قطعت أشواطا متقدمة في إفريقيا، فقد حصدوا ما زرعه الفلافيون، سواء بإنشاء مستوطنات أو بالنهوض بها، وتوفير الأمن للوافدين وإدماج الأهالي في النمط الحضاري الروماني، تحت حكم الأنطونيين، ومنذ نهاية القرن الأول، تبدأ مرحلة أخرى، تتقدم بداية من السهول العليا النوميدية التي كانت قد دخلت من قبل تحت مراقبة روما.

1- بشاري (م.ب)، دور المقاطعات الإفريقية في اقتصاد روما، ص.102.

2 - Pline l'Ancien, H.N, V,1, 20 " colonia Augusti Rusguniae "

3 - Pline l'Ancien, V,1, 20- 21 " Gunugu colonia Augusta "

4 - Pline l'Ancien, H.N, V,1, 20- 21. " Cartena colonia Augusti Legione Secunda "

5 - Pline l'Ancien, H.N, V,5" colonia Augusti Item Zucchabar "

6- منصوري (خ.)، التطورات الاقتصادية لموريطانيا القيصرية أثناء الاحتلال الروماني، أطروحة دكتوراه دولة، معهد التاريخ، جامعة وهران، 1995-1996، ص 24.

7 - Pline l'Ancien, H.N, V, 21, "Intus colonia Augusti aquae".

8- قزال (ص)، تاريخ شمال إفريقيا، ج.8، ص.176.

9- Pline l'Ancien, H.N, V, 21", Tubusuctu colonia Augusti"

10- قزال (ص.)، المرجع السابق، ج.8، ص 176.

3-2-1- عهد الإمبراطور نيرفا 96/ 98م: بالرغم من قصر مدة حكمه، إلّا أنّه عمل على تأسيس مستعمرات لتشجيع الرومنة وتثبيت القبائل المتنقلة، وقد أظهر اندفاعا كبيرا لعملية الاستيطان، ومن أهم انجازاته التي قام بها في موريطانيا القيصرية هو إقامة مستعمرة سطيف Setifis في قلب منطقة زراعية، ومنحها للجنود القدامى، وبالقرب من سطيف وإلى الشمال الشرقي منها في سلسلة جبال البابور أنشأ مدينة كويكول Cuicul (جميلة حاليا) على منحدر جبلي بين وادي بيطام ووادي قرقور، وتمّ تأهيلها بإيفاد مجموعات من قدامى المحاربين لتشكل طوقا حضاريا وأمنيا يؤمن الحضور الروماني في المنطقة مثلما سيؤمن نقل المحاصيل على طول الطريق بين سطيف كويكول وايجلجلي[1]، فاستفادت المدينتان من وسط هام بفضل الموارد المتوفرة لتربية الماشية من ناحية وأراضي الحبوب وغراسة الزيتون من ناحية أخرى، مما سمح لها بالازدهار السريع والكبير[2].

3-2-2- عهد الإمبراطور ترايانوس 98/ 117م: سمح هذا الإمبراطور بإنشاء مستعمرات بطلب من قدماء المحاربين، ما دفع إلى التوسع جنوبا لتأسيس المدن، لتصل إلى جنوب السهول العليا وشمال الصحراء[3]. وأخذ في انتزاع الأراضي من الأهالي، والقيام بمسحها وتوزيعها على المستوطنين لتسهيل الاستغلال والاستيطان. وسعى ترايانوس أيضا إلى دمج الشعب الروماني مع قدامى المحاربين في المستعمرات وكذلك الأهالي للحفاظ على السلم بغرض تهدئة الأوضاع[4]، للرومنة والاستغلال الأفضل للأرض.

3-2-3- عهد الإمبراطور هدريانوس 117/ 137م: يعتبر حضور هدريانوس لإفريقيا، حدثا مميزا بعد الجفاف الذي ضرب المنطقة لخمس سنوات، فوصوله عام 128 تزامن مع نزول الأمطار وهو ما أعتبر فأل خير. يوصف حكم هدريانوس بكونه حكما فعالا مميزا، استكمل فيه منجزات ترايانوس، وشجع الإرادة الصادقة في الاستقرار[5].

تميزت سياسته بشكل عام في إفريقيا بإعطاء اسمه لبعض المستوطنات مثل قرطاج، التي أصبحت تسمى هدرينوبوليس Hadrinoplois، ومنح الحق اللاتيني للعديد من المدن،

1- Gascou (J.), la politique municipale de Rome en Afrique du nord de la mort d'Auguste au début du 3eme siècle, ANRW,II, 1982, p.173-174.

2- حارش (محمد الهادي)، مرجع سابق، ص.258.

3- شارن (ش)، رحماني (ب)، بشاري (م. ح)، الاحتلال الاستيطاني وسياسة الرومنة، ص.82.

4 - Gascou (J.), la politique municipale de Rome…, p.209.

5 - Claud Briand- Ponsart, Christophe Hougoniot, l'Afrique romaine de l'Atlantique à la tripolitaine 146av. J.C. 533ap. J.C., 1ére éd., Paris : Armand colin, 2005. p.66.

منها توريس تاماليني (Turris Tamallini)، وهي المدينة التي تقع في تونس على أراضي المستوطنة القديمة، وبلدية شوبا (Choba) على سواحل موريطانيا الشرقية، التي أصبحت تحمل اسمه أيضا، كما أنّ العديد من المدن كان لها شرف ترقيتها.

كما قام بتقوية التجهيزات والتعزيزات على الحدود، التي أدّت إلى تمتين القلاع وبالخصوص في رابيدوم، فعسكريا يقال أنّه عزّز منجزات ترايانوس مستنسخا توجها جديدا في تنظيم الحدود. وقد شهدت الهجرة الإيطالية في المنطقة كثافة لم تشهد لها المنطقة مثيل لها منذ قرن.

قام هذا الإمبراطور بتشييد الحصون في المناطق الداخلية لمراقبة الحدود وصد التمردات والرد على الثورات، إلاّ أنّ ذلك لم يمنع المنطقة من التعرض للغزوات من طرف قبائل الباقوات (Baquates)[1]، التي وصلت إلى غاية قارتتاي (تنس) وكان ذلك في عام 122م، وللقضاء عليها قام بإرسال القائد توربو[2]. كما قام الإمبراطور هدريانوس بفتح طريق ليصل بين سور جواب وسور الغزلان (أوزيا Auzia) عبر البرواقية Tanaramusa، وطريقا أخرى تمتد من سطيف إلى بجاية بواسطة كتيبة الموزولام[3].

قام هذا الإمبراطور أيضا بسلب أخصب الأراضي المتمركزة في المناطق الأكثر احتلالا في موريطانيا القيصرية مثل شرشال وتيبازة، ما أدى إلى تعرض حكمه لعدة ثورات عنيفة من طرف قبائل مورية، ما استلزم عليه الشروع في إقامة خط حدودي (ليمس) قوي في موريطانيا، انطلق من سطيف إلى أوزيا متجها نحو الغرب[4].

أمّا سياسيا فقد تخلص هدريانوس من أحد القادة الموريين وهو لوسيوس كويتوس، الذي ظهر بجانب تراجانوس في حملته ضد الفرثيين، ففي تلك الفترة حصل هذا الأخير على لقب قنصل، وقد شكك هادريان في إخلاصه وانزعج من سلطته التي يمارسها على الموريين فجرده من سلاحه وعتاده، وعين مكانه ماركوس توربو، هذا الأخير الذي جيء به خصيصا من أجل سحق اليهود، وإجهاض كل تمرد في موريطانيا، وتاريخ أغسطس يشير إلى وجود تمرد من قبل الموريين رغم استحالة تحديد سعته ومداه. (Had, V,2).

1- Fevrier (P.A), Histoire d'auguste et le Maghreb, Ant Afr, tome 22, 1986, p.117.

2 - Gascou (J.), Op. cit., p.209 ; Pallus de lessert (clément), études sur le droit publique et l'organisation sociale de l'Afrique romaine, 2 les gouverneurs des Maurétanie, Paris, 1985.

3 – شارن (ش)، رحماني (ب)، بشاري (م.ح.)، المرجع السابق، ص.83.

4- Mesnage (J.), La romanisation de l'Afrique du nord, p.68.

3-2-4-عهد أنطونينوس التقي 138/ 161م: اتبع هذا الإمبراطور سياسة مشابهة لسياسة هدريانوس، رغم أنّه أقل ظهورا وتأثيرا، حيث اهتم بتقوية المدن بشكل عام، وسعى من أجل مراقبة أفضل للأوراس واستقدم إلى شرق موريطانيا جنود الفرقة السادسة (Ferrata)، التي كانت متواجدة في سوريا، والتي سلكت طريقها في منحدرات تيغانيمين الأوراسية، وربما كان ذلك هو العامل الذي أدى إلى اشتعال نار المقاومة مجددا لدى المور، إذ شهدت موريطانيا في فترة حكمه قيام عدة ثورات، ما جعله يستدعي فرقا عسكرية كبيرة لإيقاف هذه المقاومة، التي دامت من 142 إلى غاية 150م، لتتبع هذه بأخرى أخطر في نهاية حكمه بين سنتي 158 و160م[1].

في موريطانيا ثارت قبائل ضده مثلما يشير الكاتب المجهول لتاريخ أغسطس، الذي يؤكد أنّ أنطونينوس التقي "أجبر المور على طلب السلام (Antoin, V, 4).

في رابيدوم أحاط قدماء المحاربين وأفراد الباغاني المدينة بحواجز من الحجارة عام 161م، وكانت أيضا بداية لسلسلة طويلة من مفاوضات السلام المبرمة بين الرومان وقبيلة أورُبما مجموعة من القبائل على هوامش الأطلسي، والتي تسمى الباقوات التي بقيت خارج السيطرة الرومانية[2]، وحسب ميشال كريستول فقد سويت العلاقات بواسطة لقاءات كانت تعقد في كل مرة، وقد وجدت حسبه تسجيلات حول ذلك في وليلي[3].

3-2-5- عهد الإمبراطور ماركوس أورليوس 180/161م:

ساد في عهد هذا الإمبراطور نوع من الهدوء وانتهت الاضطرابات، واهتم بخدمة الأهالي، إذ يقول لوبوهيك (Le Bohec)، مثلا أنّه قام بإنشاء وشق قنوات لنقل المياه في صالداي[4]، كما أنّه خصص أموالا لرومنة النخبة في البروقنصلية ومن أجل ترقية المناطق التي سعوا إلى رومنتها، في موريطانيا على العموم، التي ورغم انخفاض حدة الاضطرابات إلّا أنّها لم تنته، بل بقيت مستمرة على طول وعرض المقاطعة، حتى أنّ المور انتقلوا من إفريقيا وأخذوا يمارسون هواياتهم في نهب مقاطعة البيتيك (La Bétique)، وهي المقاطعة السيناتورية والثرية، المرة الأولى حدثت عام 171م، حيث توجب حينها، فصل هذه المقاطعة

1 - Pflaum (H.G.), op. cit. p.382.
2 - Romaneli, 1962, 13-47 ; Christol , 1988, 307.
3 - Claude Briand- Ponsard, l'Afrique romaine, p.69.
4 - Le Bohec, (Y), La troisième legion Auguste, Paris, 1989, p.69.

عسكريا عن مقاطعة التاراكوناز (Tarraconaise) [1]، وقد حصل الحاكم على تعزيزات ولم يُسترجع الهدوء إلّا نسبيا حيث تجددت الغارات ما بعد 175م[2].

3-2-6- عهد الإمبراطور كومودوس 180/ 192م: ظهرت في عهده النية والرغبة في التوسع جنوبا، وبناء الحاميات لحماية أمن المستوطنين، خاصة بعد نشوب ثورات جديدة في عهده من طرف الموريين، ما دفعه إلى مد خط الليمس إلى أقصى موريطانيا القيصرية[3]، وشيّد الطرق وزودها بحصون عسكرية من سطيف إلى أوزيا[4]، وتحولت هذه الأخيرة (أوزيا) في زمنه إلى مستعمرة بعدما قام بتأمينها وتقويتها[5]، كما قام بتدعيم المستوطنات الفلاحية بربطها فيما بينها بالطرق لتسهيل عملية الاتصال بها وتحرك القوات لحمايتها، أضف إلى ذلك أنّ كومودوس قد سعى إلى التحالف مع العشائر الأهلية القوية[6].

كخلاصة لما سبق وذكرناه نقول أنّ بلاد المغرب في زمن الفلافيين والأنطونيين حضيت باهتمام خاص ببناء المدن وتطويرها، ومدّت شبكات الطرق والمسالك لربط المدن، وتحييد وفصل المناطق المعادية لسياستهم التوسعية والاستيطانية، تميزت كذلك بإعطاء حق المواطنة الرومانية للأشخاص والجماعات، الهدف منها هو نشر الثقافة اللاتينية وبالتالي رومنة المنطقة.

3-3- عهد الأسرة السيفيرية 193/ 235م:

3-3-1- عهد الإمبراطور سبتميوس سفيريوس 193/ 211م: عمل هذا الإمبراطور على فصل المناطق العسكرية والمدن المدنية، وساهم في تطويرها خاصة القرطاجية، أما المدن الموريطانية فقد حظيت بتنمية شكلية مثل أوزيا[7]، كما قام بالتوسع جنوبا إلى غاية الصحراء، وهذا خصوصا في موريطانيا، حيث قام بفصلها عن مقاطعتي إفريقيا، وكان ذلك

1- مقاطعة البيتيك، هي مقاطعة رومانية جنوب اسبانيا، ما بين مضيق جبل طارق ورأس ناو، أما التاراكوناز فهي مقاطعة رومانية تضم أيضا شمال وشرق اسبانيا.

2- Claude Briand- Ponsard, l'Afrique romaine, p.70.

3 - Le Bohe (Y), op. cit., p.69.

4 - Mesnage (J.), op. cit., p.73.

5 - Pflaum, op. cit, p.284.

6- شنيتي (م.ب)، أضواء على تاريخ الجزائر القديم (بحوث ودراسات)، دار الحكمة، الجزائر 2003، ص.ص. 62-64.

7 - Le Bohec (Y), Histoire de l'Afrique romaine, éd. Picard, Paris 2005, p.75.

ما بين عام 198- 199م[1]، يرى "لوبوهيك" أنّ سيبتيموس قد اتّبع سياسة استيطانية مميزة إذ قام بتوزيع أراضي الأهالي على جنوده، ووضع تحت تصرفهم كل الوسائل التي تمكنهم من استغلالها قصد كسب ولائهم[2]، ورغم ذلك فإن نسبة توافد المستوطنين إلى موريطانيا كانت قليلة، بسبب خطر الأهالي الذين سكنوا جنوب الليمس من موريين وجيتول[3]، الذين لم لم يستسلموا وظلوا يشنون هجمات متلاحقة، أخطرها الهجوم الذي قام به سكان القبائل الكبرى على المنطقة الساحلية روزازوس (أزفون) سنة 201م[4]، ما فرض على سفيريوس إقامة خط من الحصون والقلاع، وقطع الاتصالات بين القبائل المتواجدة في الهضاب العليا وتلك التي تسكن في الصحراء.

3-3-2-عهد الإمبراطور كراكلا 212/ 217م: ساد في عهد هذا الإمبراطور الهدوء، ربما ذلك راجع إلى سياسته الإيجابية مع الأهالي، إذ يعرف عنه إصداره لدستور يعرف باسمه، منح فيه سكان المقاطعات حق المواطنة، كان ذلك عام 212م والهدف من ذلك هو إلغاء الفوارق بين المواطنين الرومان الأصليين والجدد[5]، وقد كان لهذا القرار نتائج ايجابية على روما حيث استمرّ توافد فئة من قدماء المحاربين بغرض الاستقرار والحصول على حق المواطنة الرومانية[6].

كما قام كراكلا خلال سنتي 214- 215م ببناء حصون وقلاع كثيرة في سهول سطيف خاصة، ومنها ما تحول إلى مدن فيما بعد[7].

3-3-3- عهد الإمبراطور أليكسندر سيفيروس 222/235م: يعد آخر الأباطرة السيفيريين، تميزت موريطانيا في فترة حكمه بتدهور الأمن وانعدام الاستقرار، نتيجة الثورات التي ظهرت في أكثر من منطقة، فقد هاجم الأهالي أراضي المستوطنين وخربوها في مناسبات عدة، ما دفع روما إلى مضاعفة بناء التحصينات خاصة في السهول العليا والشرقية، وذلك بهدف منع المواجهة والاصطدام بين المستوطنين الجدد وقبائل الأهالي المطرودة بعد مصادرة أراضيها.

---

1 - Ibid. p.76.

2 - Le Bohec (Y), op. cit. p.69.

3 - Mesange (J.), la romanisation de l'Afrique (Tunisie Algérie Maroc), paris 1913, p.68.

4 - Kaddache (M), L'Algérie dans l'antiquité, p.146.

5 - Cagnat (R), L'armée romaine de l'Afrique…, p.54.

6 - Picard (G. Ch.), La civilisation de l'Afrique romaine, Paris 1959, p.22.

7 - Bénabou (M.), La résistance africaine à la romanisation, p.p. 155-156.

شهدت إفريقيا الرومانية في عهد السيفيريين، أقصى توسعاتها وأوج تطوراتها الاقتصادية وبانتهائه بدأت مرحلة التدهور والتراجع، التي آلت إلى الفوضى العسكرية والسياسية، وهو ما يعرف عند المؤرخين بأزمة القرن الثالث، التي كانت لها آثار ونتائج وخيمة على السيادة الرومانية في شمال إفريقيا، رغم محاولات الإصلاح التي حاول القيام بها الإمبراطور ديوقليسيانوس في العصر الإمبراطوري الأسفل.

4- آثار ونتائج الاستيطان:

- ازدهار المدن ذات الطابع الفلاحي.

- ازدياد الإنتاج الفلاحي وتوسيع وتنويع الخريطة الزراعية، بفضل القوانين التي تشجع الناس على العمل الزراعي، واستصلاح الأراضي، فانتشرت بساتين الزيتون والكروم والمزارع الواسعة للقمح مما ساعد في تقوية الإنتاج.

- التحكم واستغلال الثروة المائية التي تم نقلها عبر القنوات للسقاية والحنايا للشرب.

- إقامة شبكة من الطرق والجسور.

- تنشيط وازدهار الحركة التجارية الداخلية والخارجية، بفضل حركة الموانئ.

- شكّل الاستيطان قنوات اتصال بين جميع الشعوب (الليبية، الإيطالية، الجرمانية...)، وعمل على إدماج العناصر البشرية المختلفة في بعضها، ليشكل منها إمبراطورية ذات صفة عالمية (من الجزر البريطانية إلى ألمانيا وشمال البحر الأسود، العراق، بلاد الشام، مصر، شمال إفريقيا، شبه جزيرة أيبيريا وغالة).

- تنافس المدن على التشبه بروما بإقامة الهياكل الدينية، أقواس النصر، الحمامات، ساحات عامة ووسائل الترفيه من ملاعب ومسارح ومدرجات والمكتبات، وغيرها من المصالح ذات المنفعة العامة كالطرق والأسوار، وامتدت الحركة العمرانية إلى الأرياف بعد أن أصبحت المدن تشع بحياتها على الأرياف.

- أدّى الاستيطان إلى اندماج اجتماعي وتجاور حضاري، وجعل شمال إفريقيا يساهم برجاله وقدراته الاقتصادية في ازدهار حضارة روما في حوض المتوسط، وبعد أن أفل نجم روما، ظلت شمال إفريقيا تحتفظ بموروث حضاري جانبه المادي المعماري لا تزال شواهده إلى الآن، وجانبه الثقافي الروحي برز في وقته، بحيث نبع من شمال إفريقيا عظماء كبار في الأدب، الفن والعقيدة المسيحية.

- هذا الوجه المشرق لم يكن طيلة العهد الروماني.

لا شكّ أنّ سياسة الاستيطان والتعمير التي مارسها الرومان في بلاد المغرب قد تركت آثارا عميقة، لكن هذا العمل المنظم لتنمية وتعمير المنطقة، لا يجب أن يخدعنا، فهو موجه أولا لخدمة المصالح المباشرة لروما، أما مراكز التعمير التي كانت تحضر العمل الكبير للرومنة، فقد كان ضروريا لإفراغ روما من النازحين العاطلين ومن الجنود المسرحين خدمة للمصالح العليا لروما وليس خدمة للمقاطعات الإفريقية[1].

1- آثار ونتائج الاستيطان مأخوذة بتصرف من حارش (محمد الهادي)، المرجع السابق، ص.263- 265.

البيبليوغرافيا:

باللغة العربية:

المصادر:

- ديورانت (ويل)، قصة الحضارة، المجلد الثالث، ترجمة محمد بدران، الطبعة الثانية، القاهرة، 1964.
- العبادي (مصطفى)، الإمبراطورية الرومانية، بيروت 1999، ص.ص 38- 39، الصفدي (هشام)، تاريخ الرومان، الجزء الأول، بيروت 1967.
- قزال (س.)، تاريخ شمال إفريقيا.

المراجع:

- بشاري (م.ح)، دور المقاطعات الإفريقية في اقتصاد روما بين 285ق.م. و146ق.م.، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه في التاريخ القديم، جامعة الجزائر 02، السنة الجامعية 2007/2006م.
- حارش (محمد الهادي)، تاريخ الجزائر وبلدان المغرب في العصور القديمة.
- شارن (ش)، رحماني (ب)، بشاري (م. ح)، الاحتلال الاستيطاني وسياسة الرومنة.
- شنيتي (م. ب.)، أضواء على تاريخ الجزائر القديم (بحوث ودراسات)، دار الحكمة، الجزائر، 2003.
- عبد اللطيف (أ.ع.)، التاريخ الروماني، عصر الثورة (من تيبريوس كراكوس إلى أوكتافيوس أغسطس)، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1973.
- منصوري (خ.)، التطورات الاقتصادية لموريطانيا القيصرية أثناء الاحتلال الروماني، أطروحة دكتوراه دولة، معهد التاريخ، جامعة وهران، 1995-1996.

باللّغة الأجنبية:

- AE, 1921, 16" Colonia Iulia Augusta Rusazus".
- Bénabou (M.), La résistance africaine à la romanisation.
- Cagnat (R), L'armée romaine de l'Afrique.
- Christol, 1988.
- Claud Briand- Ponsart, Christophe Hougoniot, l'Afrique romaine de l'Atlantique à la tripolitaine 146av. J.C. 533ap. J.C., 1ére éd., Paris : Armand colin, 2005.
- Fevrier (P.A), Histoire d'auguste et le Maghreb, Ant Afr, tome 22, 1986.
- Gascou (J.), la politique municipale de l'empire romaine en Afrique proconsulaire de Trajan à Septime- Sévère, Rome, 1972.
- Gascou (J.), la politique municipale de Rome en Afrique du nord de la mort d'Auguste au début du 3eme siècle, ANRW,II, 1982.
- Kaddache (M), L'Algérie dans l'antiquité.

- Lassère (J.M.), Ubique Populus, Peuplement et mouvement de population de la chute de Carthage à la fin de la dynastie des sévères (146av C-235ap.C.), Paris, CNRS, 1977.
- Le Bohec (Y), Histoire de l'Afrique romaine, éd. Picard, Paris 2005.
- Le Bohec, (Y), La troisième legion Auguste, Paris, 1989.
- Mesange (J.), la romanisation de l'Afrique du nord (Tunisie Algérie Maroc), paris 1913.
- Pallus de lessert (clément), études sur le droit publique et l'organisation sociale de l'Afrique romaine, 2 les gouverneurs des Maurétanie, Paris, 1985.
- Peganiol (A.), Histoire de Rome, Paris, 1949.
- Pflaum (H.G.), La romanisation de l'Afrique, scripta varia, éd.afr. Rom, Paris 1978.
- Picard (G. Ch.), La civilisation de l'Afrique romaine, Paris, 1959.
- Pline l'Ancien, H.N, V, 1, 20 "colonia Augusti Rusguniae".
- Pline l'Ancien, H.N, V, 1, 20- 21, "Cartena colonia Augusti Legione Secunda".
- Pline l'Ancien, H.N, V, 21, "Intus colonia Augusti aquae".
- Pline l'Ancien, H.N, V, 21, "Tubusuctu colonia Augusti".
- Pline l'Ancien, H.N, V, 5, "colonia Augusti Item Zucchabar".
- Pline l'Ancien, V, 1, 20- 21 "Gunugu colonia Augusta".
- Pline l'Ancien, V, 1, 20-21 "Igiligli colonia Augusti.
- Pline l'Ancien, V. 5.C I L VIII 8933, "Colonia Iulia Augusta salditana".
- Romaneli, 1962.
- Salama (p.), Les voies romaines de l'Afrique de nord, Alger 1951.
- Toynbee (A.), Hannibal's Legacy, War's effects on Romain lifs, é vol, Oxford, 1965.